دموع من الماضى

للاستاذ احمد شفيق حلمى

وهرعت إليك ياسيدى الممدة ، لأنفض بين يديك جل أمرى ، من همومى وأتراحى ... وأنا حطيم القلب كسير الخاطر . وأنت تعرف كيف يقتل القلب الحزن المضنى والبكاء الأسيف ! وكيف يعصر الروح أنين الثكالى والنواح الحزين !

« فرج الله » ولدى الوحيد يا سيدى الممدة . « فرج الله » ربيبى فى الخريف العابس ! أظنك تعرفه جيداً ! لقد حدثتك عنه ودموع الفرح تتراقص فى عينى ... بل أنت نفسك قد ساهمت فى وجوده ! لقد ولد بعالك المبارك ، فأرسلت للقابلة أن تأتى ، وزوجتى « فطومة » تعانى آلام المخاض ، وتتلوى كالثعبان !

أرسلت فى طلبها من أجل أنا الأجير المسكين . فاكتحلت عينا طفلى بالنور على يديها المباركتين الصالحتين ... واندفعت وقتذاك نحوها بفرج ألح عليها أن تأخذ بطة سمينة ، وثلاثة أقداح من الذرة ، وهى كل ما أملكه حينذاك ! كدت أذوب خجلا وأنا أتقدم إليها بالهدية المتواضعة . ولكن ما العمل وضنك العيش يدفع بنا إلى الفاقة !!

وأظنك تذكر ذلك الفرح العظيم الذى أقناه ، وقد أتم « فرج الله » سبعة أيام من عمره ... جاءت المولدة فى الصباح ، ومعها من البخور أصناف شتى من المسك والكافور ، وبعض أنواع النباتات الخضر . وأقبلت نحو فطومة ، وقبلتها فى وجهها ، ثم جعلت تتمتم بدعاء خاص ... وهى تهز شيئاً تحمله فوق رأسها ، ثم أنهضت فطومة ، فأطلق البخور ... ولفت حوله سبع مرات والأطفال تتصايح فى مرح ، وراحت المولدة تطوف فى أرجاء الدار ، والطفل بين راحتيها ، والفسوة من حولها يلقين الملح على الرءوس ، ويهللن بالأفراح !

وتقدمت أنا والبست الطفل حجاباً يحفظه من الأرواح

إليك بعض تلك الصور لأننى أود أن تطالعها هناك فى الديوان لتطلع على ناحية مشرقة فى الشعر العراقى الحديث ...

إلى هنا أقف مع الشاعر الشاب لا نفذ إلى بعض المآخذ فى الديوان !

وأهم تلك المآخذ ذلك الاضطراب الذى تلاحظه فى بعض القصائد ، وهو راجع إلى تلك الصور المبهمة التى يخلقها الشاعر ، وإلى ذلك الانطلاق فى التعبير ، والانسياق مع عاطفة غامضة ، أو شعور يحبه ولا يبينه .. وأحسن صورة لذلك الاضطراب « حانة الشيطان » فهى قصيدة « سائحة ! » لا ترتبط مقاطعها برابطة ، ولا تنتظم بوحدة من فكر أو شعور .. تقرأها فسرعان ما تحس بتواكب الصور التى تدفعك فى إتجاهات مختلفة ، وتنقلك من محل إلى آخر وأنت لا تعرف على أى نظام تسير !

ففى بداية القصيدة تصوير بعينين « أطلق جفنها السهر » - يقصد جفنها ! - و « فم على الأقداح يحتضر ! » .. ويختم القطع الأول بأن جراح الكأس نكأت فارتعشت « آه » يقص جناحها الضجر ! وفى القطع الثانى يصف هذه الـ « آه » كأنها المصباح فى الحان ، أو كأنها عينان من حجر ! - ولا نعرف الصلة بين المشبه والمشبه به !! - وعلى مثل هذه الرابطة تمضى القصيدة ... وليس هذا كل ما يلاحظ فى الديوان . فهناك تشابيه متضاربة لشىء واحد مثل قوله :

عيناك عاصفة هبت وما تركت ... على صباى سوى طيف من السقم
عيناك مقبرة فى صمتها نسجت ... عناكب اليأس أكفانا من الظلم

ولك أن توفق بين العاصفة والمقبرة الصامتة !!

وفى الديوان كثير من التعابير لم أستسغها من نوع « النجم فيه ضحكة سوداء أيبسها الأوام » و « حيث الأزاهير لا تضيق إلا على همس الطريق » و « آه كأنها عينان من حجر أهدابها أنفاس سكران » !! ومثل هذه التعابير .

ولكن هذه المآخذ القليلة لا تمنعنا من أن نقول : إنه شاعر موهوب .

غائب طعمة فرمان

الشريرة ، وأخبرتني بعض النسوة أن أحمل معي ليلة الجمعة الميمونة ملابس الطفل إلى ضريح الشيخ الأتربي ، وهناك أغمسها في الماء المبارك الذي غسل به المقام الطاهر كي يطيل الله في عمره ، ولكني في غمرة الفرح بطفلي نسيت أن أفعل وأسفاه .

— ٢ —

وكانت فوحة لم تتم ، وبشر ذاب في موجات الأسى والحزن .

إني أذكر يا سيدي العمدة ، ما قالت القابلة وقتذاك ... ؟ فاتحة عناقيح الله ... [illegible] ... من الأسى ترسل الدموع سخينة حارة من أجل فرج الله ، وقد ضرب بينها وبينه بحجاب ، فهي لا تراه وهو لا ينعم بها ! وما العمل وقد فرق المرض اللعين بين أم ووليدها !

وطفق الصغير يبكي في لوعة ، وأنينه اللهيف إلى أحضان أمه الحبيبة لا ينقطع أسبابه أبداً ... لا تسألني وهو الوليد منذ ليال كيف يبكي ؟ كيف يفهم أن هذه المرأة هي أمه ؟ بربك لا تعجب ! فهذه صلة الأرحام ، وحكمة عالم الغيوب !

كان فمه الدقيق كفم الشلب ينفرج في بطء ، ويداه اللدنتان كريان البرسيم تضربان الهواء بعنف ، وقدماه العاريتان تحاولان الخلاص من الغطاء السميك ، وقد أحكم حول جسده خوف الزمهرير ...

كان يبكي من أجل الرضاع ، من أجل ثدي أمه الرءوم ، وقد انتزع منه انتزاعاً ! فعلت المستحيل لأسكن من بكائه الدائم ، فطرت إلى الغيط جزعاً ملهوفاً ، وعدت فرحاً بقدر ملوء باللبن الحليب . وتقدمت نحوه بقلب واجف ، وخطى خفيفة ، ولساني يلوك الدعاء لولي بلدنا الصالح الشيخ الأتربي . إني أخشى أن يصرخ . إني أخشى من كل شيء أن يمسه بسوء ، وحملته بحنان بين راحتي ، وحسست الحجاب الملتف حول عنقه الصغير ، وأنا أبتهل للاولياء الصالحين ألا يبكي فيمزقني ألماً وحسرة . واحتضنته بناظري متوسلا مشفقاً ، واقتربت أصابعي بالزجاجة من فمه الصغير . لم يبك فلأني الفرح ، ولبستني الشجاعة ، وانسابت قطرات اللبن في فمه الصغير ... آه يا قلبي ! لقد صرخ ، وضرب بيديه الهواء بعنف ، فانفلتت الزجاجة من بين أصابعي ، وسال اللبن على الحصير القذر ، فوسدت ولدي الفراش ، وتركته يائساً وأنا ملتاع النفس حزين !

— ٣ —

خرجت إلى الطريق ، وقلبي أشبه بقلب كل أب ، رقيق كالغصن الأخضر ، صاف كعين الديك ، حنانه يحاكي حنان الأم ! خرجت أتعثر في الحارات ، أضرب أخماساً في أسداس ، وأنا أسير تحت كابوس مفزع ثقيل الوطأة ... رأسي أشبه بساقية تصر في نواح كئيب ، قدماي من فرط الضنى تنوءان بحملي ... [illegible] ... الحقول ، وقد لعب بها النسيم والجلوين . رأيت جماعة من الفلاحين في ظلال وارفة تنبسط تحت شجرة جميز ضخمة ، والبشر باد على محياهم ، والسلام ران على قلوبهم ... رأيتهم يأكلون مشاً وبصلا وحزمة جلوين ! ولمحت إلى جانبهم ثوراً وجاموسة يلتهمان عيدان ذرة . لشد ما أتلهف اليوم إلى ذلك السلام العجيب ، وقد لفع القرية بوشاح المحبة والأمن والخير ... وأنفاس الريف الهادئة تنفث في سكانها الحياة ! الشمس ساطعة ، والحقول الخضر منبسطة أمامي على مدى الطرف ... والديكة تنبش الأرض وتصيح ... والأرز يعوم في القنوات المعشوشبة ، وأبو قردان يحط في أسرابه البيضاء على هام النخيل ، يرقب عن كثب ثوراً يحرث الأرض ، وصاحبه يحثه على العمل وهو صبور يغني ... يالله ! الكل فرح راض بما قسمت له يا رب ، أما أنا الحزين المهتاج فقد كدت أسقط في جدول يفيض في حقل باشا عظيم !

وأخيراً وصلت إلى امرأة عجوز صالحة ، ونفضت بين يديها ما ناء بحمله قلبي . قالت لي : لا تحزن يا بني ، وإني لأعجب كيف يعصر اليأس قلبك ، وبركة الشيخ الأتربي تعم القرية ، وتفيض على شاطئيها » ! !

ثم استطردت تقول : أتعرف أم عمروس جارتنا الصالحة المؤمنة ؟ اذهب إليها فهي طيبة القلب ، ويداها مملوءتان بالبركة ، عليها تعود معك فتشفي طفلك السقيم ، وخذ معك لها من « الدوار » عطيراً وبلحاً » ...

— ٤ —

وبقلب طيب خاو إلا من رحمة الله ، اتخذت طريقي إلى مقام الشيخ الأتربي . وهناك توضأت من المبضأة النظيفة ، وصليت لله

ثم تلوت بعض الأوراد ، ولم أنس أن أقبل قضبان الضريح ، وأن أطوف حوله سبع مرات ، وأنا أهمس بكلمات من ذوب قلبي

ثم خرجت من المقام ، وأنا أحس بالريف الحبيب ! حقوله الخضر فسيحة كالأمل .. يمرح فيه الساكين ! هواؤه النقي ، ندى كحبات الطل ، يهمس للزهور في غمرة الخريف ! الدنيا كلها ترقص فرحة مرحة طروبة

ووصلت إلى كوخ مسقوف بالبوص تسكنه « أم عمروش » المرأة البريئة التي عاضتها ما حدث ، ثم ناديتها فطيراً مندى باللبن الرائب ، وتوسلت إليها أن تعود معي إلى الطفل المسكين ، فسألت « كم أجري ؟ وأين مسكنك ؟ » فقلت : أما المسكن فهو قريب من هنا ، وأما النقود فأنا مفلس منها ! ! أرجو منك يا ام عمروس أن تنقذي ولدي، استحلفك بيوم الحصاد وهو قريب ، أن تعودي معي ، وهنا قد يأتي الفرج فأعطيك ما سوف أستدين !

وطالت المساومة ، واعتدم الجدال ، وهي لا تلين ولا تستجيب لرجائي .. فهممت أن أرجع يائساً مسلماً أمري لخالقي حلال المشكلات !

ولما ابتعدت عنها نادت بصوت مرتفع : انتظر يا عم مخلوف سأذهب معك ، والله يفك كربتي كما أنا أفك كربة الناس! وطرنا إلى البيت أنا فرحان مطمئن ، وهي لا هثة تحث الخطى ورائي

— ٠ —

طفلي الحبيب ينعم بعد جوع ، ويسمن بعد هزال !! لك الله ياطفلي ، وقد نادت أيامك السبع بالأتراح .. وأنت تخطو وتيداً على أبواب دنياك ! وما ذنبك أيها الحبيب الغالي والدنيا شرور وآثام ! ! أمك وأبوك يمضهما الفقر ويمصرهما الحرمان .. أبوك يا « فرج الله » فلاح مسكين يروي الحقل بعرقه ويحصد الهشيم آخر السنة ! صاحب الحقل يلح في طلب الأجر، ومالك الماشية يقصدنا مع الهلال العربي كأنهما على ميعاد ! .. والدائنون النهمون يزمجرون في غضب ، ويتوعدون بحقد مرير وليس للفرار منهم من سبيل ! كم يبقى له بعد ذلك إلا الحزن يضنيه ، والأسى يعصره .. وهموم العيش ترمي به في أحضان الحرمان !!

ولكن (فرج الله) سيجعل ظلامي فجراً باسماً .. سوف يأتي الرغد يحث الخطى خلف صفحته المضيئة .. تكثر الأمواه في الترعة ، ويزدهر الحقل ، وتجني الثمر فيكون خيراً عظيماً .

... وأفقت ياسيدي العمدة على عتبة داري، والنحيب الحرق يطرق مسمعي بقسوة ، وزوجتي « فطومة » تصرخ وتصيح: « ولدي ! ولدي » ! والنادبات من حولها يلطمن الخدود ، ويضربن على الصدور ، ويتمايلن كالمجنونات !

ورفعت رأسي الأشيب لأشهد ما جرى ، ثم أطرقت إلى الأرض ، وتحدرت على وجهي الشاحب دموع سخينة ..

وساد المكان صمت كئيب ثم استطرد يقول :

« أعرفت ماذا جرى أيها العمدة ؟ أفهمت ماذا أعني ! ؟ »

ثم أشرقت عيناه بالدموع ... وهو يتثبت بخيط رفيع من الماضي يقص منه مأساة دنياه :

« وهناك في الحقل لمحني الناس أخبط في طريق ، إلى أين ؟ لست أدري ! وعلى الأعشاب الخضر في ممشى الحقول كنت أحث الخطى كأنما تقودني أنفاس خفية ! إلى هناك ...؟ وبعد هنيهات تسللت قدماي إلى مقام الشيخ الأتربي ، وغمر السكون حين ذاك تسابيح عطرة ، تنساب مع سكون الريف إلى أعماق الناس ! تدعو لمبدع السكون بالصلاة .

أحمد شفيق علمي

إدارة البلديات العامة

حدائق

تقبل العطاءات العلنية ظهر ٢٠ ـ ٥ ـ ١٩٥٠ ببلديات ملوى . بورسعيد . القناطر الخيرية . ميت غمر عن توريد شعير وتبن وتطلب الشروط من كل بلدية نظير ١٠٠ مليم بخلاف أجرة البريد . ٤٧٠٧